رسائل مي

صفحات وعبرات من أدب مي الخالد

مي زياده

الكتاب: رسائل مي

الكاتبة: مي زياده

الطبعة: ٢٠٢٣

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com **E-mail:** info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

زيادة، مي

رسائل مي / مي زياده

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٨٨ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٧ – ٦٧٦ – ٩٩١ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٤٨٣١ / ٢٠٢٣

رسائل مي





مقدمة

لا تذكر النهضة النسائية في الشرق العربي إلا ويتسابق إلى الأذهان توا اسم مي. مي الأدبية المجاهدة التي عاشت ما كتبت فكانت حياتها المليئة خير ما تركت من الآثار.

ولدت ماري زياده في ناصرة فلسطين حيث ترعرعت واتمت مبادئ الدروس، حتى إذا بلغت عامها الرابع عشر دخلت مدرسة عينطوره في سنة ١٨٩٩. وهناك عرفت بقوة الشخصية وحدة الذكاء وغرابة الأطوار.

كانت دقيقة الملاحظة، انيسة العشرة، رضية الخلق، تحب اللهو والضحك والحركة. ولكنها كانت غريبة الروح، موحشة الفؤاد تميل إلى العزلة فتخلو بنفسها تتنهد وتشكو وتكتب وتحسد العصافير المرفرفة حولها، تزقزق على هواها حرة طليقة.

وغادرت مي مدرسة عينطوره سنة ١٩٠٤ إلى الناصرة حيث اقام أبواها وقد أنجزت دروسها الثانوية بتفوق ملموس فعاشت في تلك المدينة غريبة، إلا والديها، تفتش عن طريقها متأوهة لا تستكين.

هل ترضى بعيشها الخامل المقفر فتكتفي وتستقر؟ لا بل تتحرر من قيود وضعها فتستثمر كل ذاتيتها الخصبة وتملأ وجوده وتفعل.

وانتقلت إلى القاهرة مع ذويها حيث مجال العمل أرحب وأطلق، وغير ان امكاناتها المادية المحدودة حتمت عليها أن تبقى غريبة هنالك أيضا. فلا الاوساط الراقية كانت تعرفها فتقدر موهبتها، ولا مواردها المالية كفت لتتيح لها الظهور، فاضطرت إلى أن تحيا على الهامش حينا، فتألمت وشكت إلى نفسها حرقة النفس وعزمت على ان تقع... أو تموت.

في مسكن صغير آمن يكاد يخلو ألا من ضروري الأثاث، جلست ماري إلى طاولة مستديرة تتأمل وتدرس،

ليل نهار، لا تبالي مطلقا بنهي والديها عن جهد عقلي قد ينهك قواها. فطالعت في وحدتها تلك لأمرتين وكورناي وشلر وبيرون وشلي، وساحت معهم في أثير الشعر تحاول التفلت من وضعها الجائر، وطالعت أيضا سير من اشتهرن ووجهن من الأديبات، ولاسيما مدام دي سيفينيه وجورج صند ومدام دي ستال، فتساءلت غير مرة لم لا تسير هي في أثرهن ولا الحسن ينقصها ولا العزم ولا الذكاء..

ومن الأحلام ما إذا عاشها صاحبها لا تلبث أن تتحقق. أحست ابنة الياس زياده بميل جامح إلى الإخراج فجعلت تكتب بالفرنسية، شعرا ونثرا، وتنقح وتصقل وتهئ للنشر بعض مقطوعات. وإذ أيقنت أن اسمها لا يستلفت انتباه القراء فيقبلوا على تذوق كتاباتها وهم مفطورون اجمالا على الأخذ بالظاهر، اختارت لها اسما مستعارا موسيقي الوقع يثير الفضول: ايزيس كوبيا وقعت به منشوراتها الأولى، وثقتها بالنجاح لا تحد.

وشقت ايزيس كوبيا طريقها في أوساط الأدب المصرية بعد صدور باكورتها Fleurs de rêve، فلهجت بذكرها المجالس متسائلة من تكون تلك الأديبة الشاعرة، إلى أن ظهرت ماري زياده آخر الأمر وانطلقت انطلاقة الحزم والإيمان.

بيد أن هذه الشهرة التي طالما سعت إليها مي وحسبتها الدواء الناجع لقلقها لم تحررها طويلا من ربقة الكآبة. فما هي أيام حتى عاودها السأم فشعرت بعقم الحياة الرتيبة وأحست بالفراغ القاتم يسود أعماقها ولا يغيب. وتطلعت إلى المرآة، ذات صباح، تناجي نفسها الشرود فبدت لها غضاضة الصبا في أكمل حلقاتها وأبهج. وتراءى لها في الخيال الغد الرهيب، يسم النضارة ساعة فساعة، فالقت بيدها تعبة عند موقع القلب، وتمتمت ممتعضة: ما أقسى الزمان. وانصرفت إلى حديقتها تعنى بها وتعني، ثم عادت إلى غرفتها ولما تنفرج، فتناولت قيثارتها الصفراء ووقعت "برساز" شوبان وهي لا تنفك واجمة حزينة، إذا سألتها أمها

عما بها حاولت التبسم واستهجنت السؤال. وماذا أقلق ميا وعذبها الا وحشتها الجافة التي سعت عبثا لأن تبددها فتستقر.

وعاودها الشوق إلى مدرسة عينطوره، إلى أيام تلمذتها، إلى صنين والوادي والبحر والأرز، وما سلخت ازاءها من فلذات متأججات عن ذاتيتها الفتية، قامت لبنان سنة ١٩١١ في طلب الترفيه والسلوى، وكانت شهرتها الأدبية قد تقدمتها إليه.

وفي لبنان قصدت ضهور الشوير فابتنت لها "كوخا اخضر" في حضن الطبيعة تحول سريعا إلى محجة كتاب العصر، وقد أرادته خلوة هادئة تحلم في كنفها وتكتب وتلهو.

وهنالك في هدأة الكوخ الأخضر، راحت تترجم "الحب في العذاب" بأسلوب عربي عذب. حتى إذا جاء الخريف عادت وذووها إلى مصر ولما تزل تشكو الفراغ الذي لم تكن لتملأه طويلا، لا الحفاوة البالغة التي لقتها حيثما حلت ولا خواطر مولر الشعرية وذكرياته الغبراء.

وابتسمت مي لمودعيها وابتسمت وهي تغادر ربوع لبنان. ورب ابتسامة زاهية، حجبت شقوة النفس.

وفي مصر كتبت مي بجرأة واستمرار، في "المحروسة" مجلة أبيها، وفي "البروغره" وغيرهما من الصحف المصرية، فاجتذبت إليها انتباه الأدباء، فالتف حولها عدد من البارزين بينهم، جعلوا من منزلها صالة لهم، كانوا يرتادونها، كل ثلثاء، فيتباحثون في شؤون التأليف والفنون والثقافة ويتشاورون، في جو رصين يشبع فيه الطمأنينة حسن الفتاة العذب يعززه الذكاء.

وفي تلك الحلقات الأدبية الدورية طالعت مي مقالا لجبران خليل جبران، فاستذوقت نهجه واستزادت، وقد لقيت لديه غصة ألم وضراوة وحشة وفورة جموح طالما تنازعتها هي فاورثتها القلق الذي لا يهادن.

ولم تكتف بمطالعة جبران وحسب، بل راحت تستوضح سيرته وأوضاعه باهتمام جدي، كأنما هي أرادت أن تكتشف الينبوع الأصيل الذي فجر ذلك النتاج.

وعنَ لها أن تكتب إليه، ولكن كيف تفعل وهي لا تعرفه، وبعد تردد طويل تناولت ريشتها وخطت أول رسالة منها إلى جبران. وكان ذلك في ٢٩ اذار سنة ١٩١٢.

استهلت مي رسالتها بتعريف ذاتها فقالت: "امضي مي بالعربية، وهو اختصار اسمي، ومكون من الحرفين الأول والأخير من اسمي الحقيقي الذي هو ماري وامضي" ايزيس كوبيا "بالفرنجية، غير أن هذا اسمي ولا ذاك. إني وحيدة والدي وأن تعددت القابي". وراحت تحدثه عن حالتها في مصر، وعن تاليفها وطريقة حياتها، وعن مشاريعها الأدبية وما إليها من شؤون خاصة بها، ما كانت لتذكرها، لو أنها لم تشأ أن ترضي كبرياءها الأنثوي بإقناعها جبران بأنها ليست متطفلة عادية تكتب إليه...

واستمرت من ثم هذه المراسلة خصيبة بالشعور حتى وفاة جبران.

ونشبت الحرب الكونية الأولى فانقطعت المواصلات بين العالمين، القديم والجديد، فجزعت مي وترقبت، على

مضض، انفراج الأزمة. إلا أنها لم تهمل صالتها العامرة ولم تنقطع عن الكتابة، عزائها الأوحد، بل واصلت أبحاثها في مجلات المحروسة والمقتطف والمقطم والهلال.

وقد درست بنوع خاص وضع المرأة الشرقية وبيئتها وطبيعتها فأوضحت موجباتها، وأيدت حقوقها، واتخذت من باحثة البادية مثلا أعلى للجهاد النسائي. وقد دفعها حبها الاستزادة من العلوم إلى الالتحاق بالجامعة المصرية حيث تعمقت في درس الفلسفة العامة والفلسفة العربية وعلم الأخلاق على المستشرق الاسباني الكونت جلارزا. وبعيد الحرب نشرت كتابها "باحثة البادية" فلاقى استحسانا كبيرا في أوساط الأدب في مصر وفي غير مصر. فازدادت ثقتها بنفسها وجمعت بعض ما كتبته في المقتطف والهلال والمقطم ونشرته على التوالي في "ظلمات واسعة" "بين المد والجزر"، "الصحائف"، "سوانح فتاة". كما جمعت عددا من خطبها في "كلمات وإشارات".

وكان الحنين يلج بها دوما إلى لبنان فجاءته مرتين والقت فيه محاضرات قيمة عن رسالة المرأة. وفي سنة ١٩٢٥ سافرت إلى إيطاليا تشاهد فيها عن كثب روائع رافائيل وميكالنجلو ودافينشي وغيرهم من أعلام الفن العالمي الخالد.

وأخذ الزمان يعبس لمي سنة سنة ١٩٢٨، فمات على التوالي صديقها يعقوب صروف، وأبواها وجبران، فوجدت نفسها هرمة وحيدة، في ذلك المنزل الذي طالما عمر برواد صالتها وعودها في كنف ذويها الطمأنينة والرخاء. فاعتزلت العالم ظنا منها أن الوحدة خير بلسم لكلومها المعنوية، ولكنها لم تلبث أن ضاقت بوحدتها تلك، فنقمت على منزلها وما فيه من أشياء تذكرها بالأمس الرغيد، فسافرت إلى فرنسا سنة ١٩٣٢ وجالت في حواضرها، وتوجهت منها إلى انكلترة حيث زارت بلد شكسبير واكسفورد، وانتقلت إلى سويسرا فإيطاليا متلمسة في كل مكان عزاء يدوم. ولكن نفسها القلقة كانت تترجح دوما في فجوة

القلب الطعين، فملت السياحة وعاودها الحنين إلى القلم، فرجعت إلى مصر، وغيرت منزلها، وراحت تترجم أعلام الفكر الإغريقي، وتطالع ورثر ورينه وتأملات لا مرتين، محاولة أن تذهل عن نفسها حينا في غمرة العمل المرهق.

وضاق بها الجو ثانية، فركبت البحر إلى إيطاليا حيث درست، في جامعة بروجيه، آثار اللغة الإيطالية وجالت في متاحفها التي أوحت إليها بالأمس أبلغ الإعجاب. ولكنها لم تكن لتستقر على حال، فأخذت هنالك عوارض الإعياء العقلي تظهر في جسدها المثقل بالهموم والمشقات، فتعبت من الكتابة فاستعانت بيد سكرتيرة وهي تترجم بعض المآسي.

وعادت إلى مصر، فاشتد عليها المرض وازداد تبرمها بالحياة فقصدت لبنان، موطنها الأول، تطلب الاستشفاء في ربيع سنة ١٩٣٧. ولكن على غير طائل. فرجعت إلى القاهرة تجر أيامها جرا حتى كانت خفقة قلبها الأخيرة في ١٩ تشرين الثاني سنة ١٩٤١.

أما رسائل مي فقد قال عنها انطون الجميل:

"رسائل مي يجب الاحتفاظ بها لأنها نوع جميل من أدب الرسائل في الأدب العربي، ففي الأدب الفرنسي رسائل لامثال فلوبير وفلوتير وغيرهما، وفي هذه الرسائل تستطيع دراسة الكاتب أكثر من دراسته في مؤلفاته. وعندي لمي بضع رسائل اعتز بها لأنها أثر باق من آثارها. ورأيي أن تجمع رسائلها إلى من اتصلوا بها. وتنشر في كتاب خاص، ففيها ولا شك ثروة كبيرة، وتراث أدبي نفيس.

"رحم الله ميا، لقد كانت على اطلاع واسع الحدود، فسيح المعالم، وكانت شخصيتها تثب مستقلة من خلال أفكارها وكتاباتها. فما قلدت كاتبا، ولا حاكت مؤلفا، ولكنها ترجمت خلجات نفسها أو وحي ضميرها، وسر شعورها. وكانت رفيعة في نقدها، رقيقة في مخالفة رأي غيرها. فما آذت شعورا ولا جرحت إحساسا".

جميل جبر

إلى باحثة البادية

سنة ١٩٠٢

باحثة البادية هي ملك حفني ناصف الكاتبة المصرية المعروفة وإحدى المجاهدات البارزات في سبيل تحرير المرأة. كتبت عنها مي مؤلفا عنوانه "باحثة البادية" وقبل أن تتعرف إليها كتبت إليها الرسالتين التاليتين:

* * *

ترنمت باسمك قبل أن أعرفك، واتخذت ذكرك عنوانا لنهضة المرأة المصرية قبل أن أطالع مقالاتك لأن أصوات الجمهور قد اتفقت في الثناء على فضلك. غير أني عثرت بالأمس على مجموعة كتاباتك النفيسة فانحنيت عليها ساعات طويلات فيها خيل لي إني أقلب صفحات نفسك المفكرة المتوجعة.

ثلاث سنوات مضين، وتلك المجموعة محفوظة بين دفات المكاتب أو مبعثرة بين الأوراق والأسفار المتراكمة يوما بعد يوم. لكن سرها ما زال مترقبا يدا تلمسه، مستعدا لمناجاة نفس تتلمسه.

سنوات ثلاث فيها مشت البشرية خطواتها المعدودات متعثرة بالعظام والجماجم، منشدة أهازيج النصر الكاذب وتهاليل الفخر الباطل، وقواها الغالية تسيل على شفار السيوف، ودماء حياتها تجري أنهارا في سهول قد أخفت نجمها الجميل وثمراتها الممتعة خوفا من وحشية الإنسان.

سنوات ثلاث فيها شعرنا بارتداد صدمات السياسة والاقتصاد والأطماع المتزايدة. فيها ارتفعت دويلات جادة مجتهدة وتهشمت أعضاء تركيا العظيمة بتاريخها الضعيفة باهمالها وتهاونها. وقد جاش لذلك كل ما في صدر الإسلام من النخوة القديمة وبكت له قلوب الغيورين على مصالح بني عثمان.

كل ذلك ومصر مصر بكآبتها وانعطافها واندفاعها. كل ذلك ونحن هائمون على وجهنا في صحراء الفوضى. صخور التقاليد القديمة تدمي أقدامنا الجديدة، وأشواك الاصطلاحات تجرح أيدينا الممتدة للمس أشياء نظنها موصلة إلى حياة نريدها عظيمة. والسراب الجميل اللامع في صدور المستقبل غير المحدود يستدعينا آمرا كأنه نظرة عين فتانة، فنجري في الصحراء ولا ندري إلى أين المصير؟!

سنوات ثلاث مررن على يوم فيه ارتفع صوتك مرشدا عائلتنا لا تزال على ما كانت عليه، وأفكارنا لم تتغير إلا قليلا، وعواطفنا ما برحت حائرة بين تيارات متعاكسة دائمة الاضطراب بين ما ندعي أننا نعلم وما نجهل أننا لا نعلم! غير أن الأصداء الخفية ما زالت ترجع همس ذلك الصوت الرخيم.

بالأمس لمست نفسك وقرأت أفكارك فعثرت على جراح بليغة وددت تقبيلها بشفتي روحي، وما اطبقت الكتاب إلا وأنا الثم بناني على غير هدى. ولم يكن ذلك إلا

إجلالا لصفحات قلبتها وحبا لنفس استجوبتها فعرفتها.

فيا من "ارتفع قلبها إلى فكرها وانحنى فكرها على قلبها"، أيتها الباحثة الحكيمة، لماذا تصمتين؟

تتوالى الأيام ونحن في ضلال مبين. الرجل يجاهد في حرب الاقتصاد الدائمة. الرجل تائه في مهامه الأشغال فإذا كتب بحث في العموميات، وإذا جال قلمه في الخصوصيات فهو لا يستطيع البلوغ إلى نور الوجدان النسائي لأنه يكتب بفكره، بأنانيته، بقساوته. والمرأة تحيا بقلبها، بعواطفها، بحبها.

علاتنا مستعصية لا يشفيها إلا طبيب يعرفها. والمرأة بعلة جنسها أدرى فهي تستطيع معالجتها. ولا تطلب هذه الخدمة الشريفة من فتيات لا يعرفن من الحياة إلا ما يصوره لهن الخيال المخيم بطلانه على منابت العواطف المخصبة. هذا اعتراف ساذج صادق: الفتيات لا يداعبن القلم إلا لينثرن الدموع أو ليصورن الابتسامات. وما تجاوز ذلك علامات استفهام متتالية وإن لم يرَ فيها من الاستفهام شيئا.

لكن الزوجة والأم التي أعطيت ذكاء وفطنة وعلما وشعورا قويا تدرك بواسطته كل ما في الحياة من حلاوة ومرارة، تلك تستطيع وضع المرأة في مركزها السامي، وتلك تقدر أن تعمل في مزج نصفي الشخصية المتألمة، شخصية المرأة وشخصية الرجل.

فيا سيدتي..

لدينا قلوب تحترق ولا ندري أي نار تحرقها، وتلتهب شغفا بما لا تعرف ماهيته، فعلمينا أنت التي كنت فتاة قبل أن تكوني أما كيف نرشدها وإلى أين نوجهها؟!

لدينا نفوس عزيزة تنحو فيها ميول مبهمة ورغبات حارة فأرشدينا أي الأعشاب فاسد فنقتلعه وأيها الصالح فنسقيه ماء الرعاية والحنان.

قولي يا سيدتي تكلمي!

ضمي يدك البارة إلى الأيدي التي تحاول رفع هذا الجيل من هوة الحيرة والتردد. ساعدي في تحرير المرأة بتعليمها

واجباتها. إن صوتا خارجا من أعماق القلب، بل من أعماق الجراح كصوتك، قد يفعل في النفوس ما لا تفعله أصوات الأفكار.

لا يهمنا أن تخفي تلك اليد النحيفة وراء جدران خدرك وأن تحجبي هيئتك الشرقية وراء نقابك الشعري، ما دمنا نسمع صوتك في صرير قلمك ونعرف منك الروح العالية.

فهنيئا لوطن يضم بين أبنائه مثيلاتك، وهنيئا لصغار يستقون وعود الهناء من ابتساماتك ويسكبون حياتهم في قالب حياتك.

مي

إلى جبران

في ١٢ ايار سنة ١٩١٢

طالعت مي "الأجنحة المتكسرة" لجبران فكتبت إليه تطري نهجها الطريف ولهجتها الصادقة، وتناقشه في موضوع الزواج. فتقول:

* * *

.... إننا لا نتفق في موضوع الزواج يا جبران. أنا أحترم أفكارك، وأجل مبادئك، لأنني أعرفك صادقا في تعزيزها مخلصا في الدفاع عنها، وكلها ترمي إلى مقاصد شريفة، وأشاركك أيضا في المبدأ الأساسي القائل بحرية المرأة. فكالرجل يجب أن تكون المرأة مطلقة الحرية بانتخاب زوجها من بين الشبان تابعة في ذلك أميالها والهاماتها الشخصية، لا مكيفة حياتها في القالب الذي اختاره لها الجيران والمعارف. حتى إذا ما انتخبت شريكا لها، تقيدت بواجبات تلك الشركة العمرانية تقيدا تاما. أنت تسمي هذه سلاسل ثقيلة، حبكتها الأجيال، وأنا أقول أنها

سلاسل ثقيلة، نعم. ولكن حبكتها الطبيعة التي جعلت المرأة ما هي، فإن توصل الفكر إلى كسر قيود الاصطلاحات والتقاليد، فلن يتوصل إلى كسر القيود الطبيعية لأن أحكام الطبيعة فوق كل شئ. لم لا تستطيع المرأة الاجتماع بحبيبها على غير علم من زوجها؟ لأن باجتماعها هذا السري، مهما كان طاهرا تخون زوجها وتخون الاسم الذي قبلته بملء إرادتها وتخون الهيأة الاجتماعية التي هي عضو عامل فيها.

عند الزواج تعد المرأة بالأمانة، والأمانة المعنوية تضاهي الأمانة الجسدية أهمية وشأنا. عند الزواج تتكفل المرأة بإسعاد زوجها، وعندما تجتمع سرا برجل آخر تعد مذنبة إزاء المجتمع والعائلة والواجب. ربما اعترضت على هذا بقولك: إن الواجب كلمة مبهمة يعسر تحديدها في أحوال كثيرة، فليس لنا إلا أن نعلم "ما هي العائلة" لنجد الواجبات التي يفرضها على أفرادها. ودور المرأة العائلي هو أصعب الأدوار وأوضعها وأمرها.

إني أشعر شعورا شديدا بالقيود المقيدة بها المرأة، تلك

القيود الحريرية الدقيقة كنسيج العنكبوت المتينة متانة أسلاك الذهب. ولكن إذا جوزنا لسلمى "سلمى كرامه بطلة الرواية" ولكل واحدة تماثل سلمى عواطف وسموا وذكاء، الاجتماع بصديق شريف النفس عزيزها فهل يصح لكل امرأة لم تجد في الزواج السعادة التي حلمت بها وهي فتاة أن تختار لها صديقا غير زوجها، وأن تجتمع بذلك على غير معرفة من هذا، حتى وإن كان القصد من اجتماعهما الصلاة عند فتي الأجيال المصلوب.

مي

إلى الآنسة مي

سنة ١٩١٢

ردت باحثة البادية بالرسالة التالية:

تفضلت فكتبت إليَ كلمتك العذبة في الجريدة وكنت إذ ذاك بين مخالب الموت فلم يكن في وسعي أن أمسك القلم لأرد عليك وإن كانت مخيلتي لم تبخل بالرد. كانت رسالتك عزاء جميلا لي في مرضي الطويل المؤلم وبلسما ملطفا لجراحي البالغة التي قلت إنك عثرت عليها. آلامي أيتها السيدة شديدة ولكني أنقلها بتؤدة كأني أجر أحمال الحديد فهل تدرين يا سيدتي ما هو لي! ليس لي بحمد الله ميت قريب ابكيه ولا عزيز غائب ارتجيه ولا أنا ممن تأسرهم زخارف هذه الحياة الدنيا ويستولي عليهم غرورها فأطمع في أكثر مما أنا فيه وليس لي حال سئ أشتكيه ولكن لي قلبا يكاد يذوب عطفا وإشفاقا على من يستحق الرحمة ومن لا يستحقها وهذا علة شقائي ومبعث آلامي. إن قلبي يتصدع من أحوال هذا المجتمع الفاسد.

وما لي أحمل نفسي أعباء غيرها وليست بمسيطرة على هذا العالم،ولكني كنت عاهدت نفسي على الأخذ بيد المرأة المصرية ويعز عليَ أن أتخلى عن هذا العهد وإن كان تنفيذه شاقا ومحفوفا بالصعوبات ويكاد اليأس يسد طريقي إليه.

كنت اعتزلت الكتابة لا لنضوب مادتها عندي ولا اكتفاء بالقليل الذي كتبت من قبل، ولكني كنت مللت المناداة بإصلاح المرأة المصرية وثبط عزمي ما أراه من انصراف فئة المتعلمين والمتعلمات الجدد عن العمل لتكوين القومية المصرية المطلوبة وما حركتهم التي ملأوا بها القطر صراخا إلا عنوان نهضة كاذبة.

تسأليني يا سيدتي أن أدلك وسط هذه الأحوال المتضاربة والآراء المتشعبة عن الطريق الذي يحسن بالفتاة نهجه وأنها لحال توجب الحيرة ولا ندري أي الطرق نسلك لنصل سريعا إلى الغاية التي نقصد إليها. كلنا يرمي إلى تقدم الفتاة وتنورها وإعدادها لأن تكون زوجة صالحة وأما نافعة أبناءها ووطنها ولكن لكل مناد بالإصلاح وجهة هو

موليها. فبعضهم لا يرى لهذا التأخر والجهل من سبب إلا كان راجعا للحجاب وهؤلاء قرروا وجوب سفور المرأة المصرية حالا ونسوا حكمة التأني والتحفظ عند إرادة الانتقال من طور مظلم مألوف إلى طور لم يعهد من قبل تكتنفه المدهشات واللوامع البراقة الجذابة التي تكاد تغشي الأبصار.

وفريق لا يرى للسفور فائدة ويقول إن الحجاب لا ينفي العلم وإ إطلاق الحرية للمرأة أخيرا كان سببا لفسادها وأن إطراد تعليم المرأة وتثقيفها سيكون مجلبة للشغب ولخروجها عن حدود وظيفتها في المستقبل كما خرجت أختها الغريبة الآن. فأي الطريقين نسلك ومن نتبع؟ إننا معشر النساء لا يزال ظلم الرجل يرهقنا واستبداده يأمر وينهي فينا حتى أصبحنا ولا رأي لنا في أنفسنا فإذا قال لنا أختبئن حتى تدفنَ بالحياة صوتا لكن وتدليلا،كما يقول المتنبي في رثاء أخت سيف الدولة:

(على المدفون قبل الترب صونا)

وكقوله في أخت ممدوحة الثانيه من رثاء أيضا:

وما رأيت عيون الإنس تدركها
فهل حسدت عليها أعين الشهب؟
وهل سمعت سلاما لي ألم بها؟
فقد أطلت وما سلمت عن كثب

إذا أمرنا الرجل أن نحتجب احتجبنا وإذا صاح الآن يطلب سفورنا أسفرنا، وإذا أراد تعليمنا تعلمنا فهل هو حسن النية في كل ما يطلب منا ولأجلنا أم هو يريد بنا شرا؟ لا شك أنه أخطأ وأصاب في تقرير حقنا من قبل ولا شك أنه يخطئ ويصيب في تقرير حقوقنا الآن.

نحن لا نأبى أن نتبع رأي العقلاء والمعلمين من الأمة،ولكننا لا يمكننا كذلك أن نعتقد أن كل من يتصدى للكتابة في موضوع المرأة من العقلاء المصلحين. ليدعنا الرجل نمحص آراءه ونختار أرشدها ولا يستبد في (تحريرنا) كما استبد في (استعبادنا). إننا سئمنا استبداده. إننا لا نخاف من الهواء ولا من الشمس وإنما نخاف عينيه ولسانه فإن وعدنا أن يغض بصره كما يأمره دينه وان يكن لسانه

كما يوصيه الأدب نظرنا في أمرنا وأمره، وإلا فكل منا حر يفعل ما يشاء. والسلام عليك أيتها الفاضلة من المعجبة بك المثنية على أدبك الجم وعلمك الغزير.

باحثة البادية

إلى باحثة البادية

سنة ١٩١٤

ليس أعز لدينا من لطفك إلا حزمك وصراحتك وليس أجمل من صدى صوتك إلا فعل معناك. وإني لأقبض على شجاعتي بيدي لأعترف بأني أحب – أستغفر الله وأستغفرك يا سيدتي! – آلامك النفسية الشديدة من جراء شقاء الإنسانية وضلالها وأتمنى من أعماق فؤادي أن تجد دواما تلك الآلام منفذا رحبا إلى قلبك، وأن يبقى ذلك القلب كريما لينا ينجرح لجرح الغريب، ويبكي لبكاء المظلوم، ويشفق على المتوجع أيا كان. بالاختصار – عفوك! عفوك! – أتمنى لك العذاب المعنوي لأنه النار المقدسة. أجل، هو النار التي تطهر، النار التي تحيي، النار التي تلين، النار التي ترفع النفس على أجنحة اللهيب إلى سماء المعاني السامية والميول الرفيعة والرغبات الكريمة، والتحمس لإجراء الإصلاحات اللازمة وتنفيذ المبادئ الطيبة، والنهوض

بالاجتماع نهضة تهتز لها القلوب حمية وطربا.

أتمنى لك ذلك، ولولاه لما وجدنا في كتاباتك تلك الأنَة العميقة التي تنبه الفكر وتلمس العاطفة في آن واحد.

لا أنكر أن أنانيتي تتكلم الآن. غير أني قلت ما قلت مسرعة هامسة. فابتسمي له إن شئت، وإلا فلا تصغي يا سيدتي ولا تسمعي بل اسأليني عما أهمس به لا جيب أني أحمد الله على ابلالك وإني اسأله أن يديمك سالمة. وما أغلى سلامتك لدينا!

جئت أسرَ إليك أمرا وقفت عليه عندما شهدت صدى مقالتك لدى جمهور القراء. اسمعي يا سيدتي الباحثة، وصوني سري!

رأيت جميعهم يتقبل أقوالك بنظرة الفخر وابتسامة الإعجاب، ولكني رأيت كذلك أسيادنا الرجال... أقول "لسيادنا" مراعاة... بل تحفظا من أن ينقل حديثنا اليهم فيظنوا أن النساء يتآمرون عليهم... فكلمة "أسيادنا" تخمد

نار غضبهم – قلت إني رأيتهم يطربون لتصريحنا بأنهم ظلمة مستبدون. نعم آنست ذلك في ملامح كل من قرأ مقالك أمامي من أسيادنا الرجال.

فذكرت إذ ذاك إلا سرور في العالم يضاهي سرور التفاهم فإذا شعر المرء بأن هناك من يفهمه كان سعيدا، سواء لديه أن تعرف منه صفاته أو علاته لأن معرفة العلات تتبعها حتما معرفة الصفات، وإن كان الخير أقل انتشارا من الشر. وما النقائص إلا فضائل مضخمة مكبرة تتسع وتستفيض دون أن تجد لها من الضمير مهذبا فتتجاوز الحدود المعنوية التي عينتها اصطلاحات الاجتماع – إذا كانت اجتماعية – أو رسمتها علوم النفس والأخلاق، إذا كانت أخلاقية.

فعملا برغبة التفاهم، وطبقا لنظام المباهاة، وتوصلا للاستمتاع بنتيجة هذه المباهاة وذلك التفاهم كان وسيكون السارق دائم المفاخرة بوقوف الناس على براعته في اختيار الطرق الجديدة واستنباط الحيل الغريبة – وكان وسيكون

القاتل مسرورا بإعلان آثامه للورى آملا أن يجدوا فيها أعمال بطل من نوعه! وكان وسيكون السياسي جادا في اقناع الآخرين أن دهاءه اقتدار وسوء ظنه وروغانه فطنة وحكمة. كذلك الرجل يسر، ويرجو، ويريد أن تشعر المرأة باستبداده ظنا منه أن الاستبداد هو السيادة، وأن هذه مقياس ذاتيته التي يريدها كبيرة. رضيت المرأة عن تلك السيادة أم تمردت عليها في نظره سيان، بل أظنه – سامحني الله إن كنت مخطئة – مؤثرا تمردها على إذعانها لأنها كلما زاد تمردها زاد شعوره بالسيطرة. وأشد الملوك فرحا بهز الصولجان، وارفعهم للرأس كبرا وتيها تحت ثقل التيجان هم ذوو العرض المتداعية للهبوط. والرجل ملك متداع عرشه، لأن ريح الفوضى تهب عليه من كل جانب وخطوات الارتقاء النسائي تتوالى متكاثرة متمكنة مع مرور الأيام.

* * *

لكنه ملك عزيز

هو الأب والأخ والصديق والخطيب والزوج فإذا سقط سقطنا معه، وإذا ارتفع كنا بارتفاعه عظيمات، لذلك نريد له خيرا ونجتهد في تأييد دولته بشرط أن ينصب عرشنا بقرب عرشه وأن نقف إلى جنبه وقفة المثيل بجوار المثيل، نريد أن نكون متساويين في الحقوق الأدبية والعمرانية ما دمنا متساويين في الواجبات والمسؤولية. بل ان واجباتنا ومسئوليتنا يفوقان ما عليه من مسئولية وواجب!

فيا ترى متى يرضى الرجل بتقرير هذه الحقيقة؟

ما أطيب قولك، يا سيدتي الباحثة، إنك تشفقين على من يستحق الشفقة وعلى من لا يستحقها. الرجل من الذين يستحقون الشفقة لأنه لا يعرف أنه يستحقها. إنه باستعبادنا لمنتحر. ولو صرفنا النظر عن مستقبل الذرية وبحثنا في حياته الفردية لوجدنا أن ما من أحد يساعده على التخلص من الشوائب الشائنة ويحثه على إنماء شخصيته الغنية المخصبة إلا نحن. كما أنه لا يهدينا إلى واجباتنا ويضع في ضعفنا قوة إلاّه.

الحجاب؟ وما هو الحجاب؟

مرحبا به ما دمنا في وسط لا يعرف كيفية معاملة المرأة ولا يستطيع احترامها. ولكن كيف نلوم الرجل على كلامه ونظراته ما دام رجل اليوم صنع امرأة الأمس؟ هكذا علمته أمه وإن لم تعلمه ذلك فإنها لم ترشده إلى ما يفضله، ولا ذنب لها لأن قصورها في جهلها لم يكن إلا نتيجة اتفاق أبيها وزوجها على جعلها عبدة.

لا لوم على أبناء تلك الأمهات. إلا أن مستقبلنا صالح لأن حاضرنا مملوء بالآمال الطيبات. النشء تتنازعه طبائع الوراثة ومؤثرات العصر وعواصف الفوضى المهاجمة قديم التقاليد من كل ناحية. ولكنه ينشد الصراط السوي ويصغي إلى صوت الاصلاح. فارفعي صوتك، يا سيدتي، ولا تيأسي! قولي بصراحتك، واكتبي بشجاعتك! جاهري ولا تصمتي!

إن البذرة التي تزرعها اليوم يد الزارع تنبت سنبلة في كيانها حياة الغد وما يتبعه من الأيام. وعندما تخضر المروج

بنضرة الرجاء فتتماوج فوق غلتها نسمات الحياة إذ ذاك سيسمع المستقبل صدىً جميلاً يرد أبيات الأمير شوقي:

صـــدَاح يا ملـــك الكنـــا ر ويا أمـــــير البلبــــــل
صـــبرا لمـــا تشـــقى بـــه أو مـــا بـــدا لـــك فافعـــل

فتجيب الأصداء الجديدة. لقد فعلت! لقد فعلت!

مي

إلى الساعة المفقودة

هذه رسالة وجهتها مي إلى ساعتها العزيزة وقد فقدتها في هنيهة سوداء:

جعلها أرباب التجارة حلية نسائية، واتقن الجوهري وضعها في سوار ذهبي فكانت نصيبي في الثرى.

صورة مصغرة للكون، كذلك كانت ساعتي، مساحتها رمز للفضاء، دورتها مسرح اللانهاية، حدودها حدود الامكان، علاماتها مقاطع الوقت الذي رتبه الإنسان، ساعاتها مقياس الأعمال، دقائقها خوف من هجوم الرزايا وترقب لوفود الآمال، ثوانيها دقائق القلب... من الثواني يتألف الزمان ومن نبضات القلب تنسج الحياة نسجا.

فيا لهول ثواني الزمان، ويا لهول نبضات قلب الإنسان!

بين ثانية وثانية يلتقي العدوان في أحشاء الثرى: الماء والنار، فتميد الأرض بمن عليها وتنفطر أساساتها فتقذف

البراكين مقذوفاتها الجهنمية وسوائلها النارية وتزفر الطبيعة زفرتها القتالة فتلتهم صروح العمران وتفتح صدرها مرحبة ببنيها. تفتح صدرها مرحبة فيتدحرجون إلى الهاوية التي ليس فيها من يعود على وجه البسيطة مخبرا.

بين ثانية وثانية يتلاقى الجيشان في ساحات الوغى فتدوي رعود المدافع في الفضاء وتختطف بروق السيوف غالي الأرواح. ولأجل كلمة غالب أو مغلوب تندك عروش وتنتصب عروش، تدمر ممالك ويعمر سواها، تخرب مدائن ويشاد غيرها، تتجندل أفراد وتفنى مجاميع فترتدي الأقوام سواد الألوان وفي نفوسهم لوعة الفقدان وسواد الأحزان.

بين ثانية وثانية يموت أمل ويحيا ياس، تبتسم شفة وتدمع عين، يخون صديق ويخلص عدو بين الثانية والثانية!

وبين نبضة ونبضة هناك سر الأسرار. دماء داخلة إلى القلب ودماء منبعثة منه، تتهافت عليه جراثيم الموت فتخرج مطهرة حيوية. بين النبضة والنبضة تأثيرات تهتز لها أعماق العمر وانفعالات تشخص لمرورها ذوات الكيان. اشتعال

الفكر وخمود العاطفة، ظفر البلاهة وتقهقر النبوغ، لذعات الغرام والحسرات العظام، قنوط ورجاء، سعادة وشقاء، هتاف الروح المسلَمة ولهاث الروح المودّعة!

***

يا ابنة أبيك! يغدرنا الزمان ساعة الرجاء، ويخوننا يوم الصفاء، ويهجرنا حين اللقاء. فأنت غادرة خائنة هاجرة كالزمان، يا ابنة الزمان!

كم من ساع طيبات وقعت مرورهن على دوران عقربيك وفكري يناجيك بأحاديث هداه وضلاله! ابسم لك عند السرور فاتخيلك صامتة تبتسمين واتنهد حيالك يوم الأسى فاتوسمك تتنهدين وتحزنين، وكأن عقربيك ذراعان يمتدان نحو العلاء مستغيثين متوسلين.

لما أفنت قلبي وحدة القلب ضغطت بك على ساعدي قائلة "أنت الصديقة التي لا تخون". ولما مزقت سمعي أكاذيب الناس وأحاديثهم المؤذية خاطبتك قائلة "أنت لا

تؤذين لأنك لا تتكلمين". ولما أذابني الجهل بدعواه والذور بسخافته نظرت إليك قائلة "أنت عالمة لذلك تصمتين".

وكنت زماني، يا ابنة الزمان!

وعلى هذا ما كان أطول اعراضك عني وأقل اهتمامك بي! في النهار كنت تطوقين ساعدي فيوجعه اثر سلسلتك وأجيب أنا على هذا العنف بلمسة المداعبة. وفي المساء كنت تستريحين بجوار وسادتي فأوقع على موسيقاك الساهية الحان أحلامي وآمالي وفي الصباح كنت أول عين أشاهدها وأول روح استجوبها.

كل ذلك وأنت لا تنتبهين ولا تعلمين.

وها قد هجرتني. فقدتك وفقدتني فيسرى بحراسة الله وانسيني!

ولكن انتخبي اليد التي ستطوقينها.

فإذا وقعت في يد شرير وقصد استعمالك ليؤذي أخا له فانقلبي افعى لساعة ولا تبرحي مفرغة فيه سمّك حتى تصرعيه قتيلا.

... لكن لا، لا! ليس الأشرار إلا ضحايا البشر وضحايا نفوسهم، لو كنت تعلمين. وهم خليقون بالرحمة أكثر من الأخيار الصالحين. فلا تتحولي حية ولا تؤذي شريرا بل غادري تلك اليد المسكينة واسقطي في طريق أب فقير لتكوني من نصيب فتاة لم تلبس في حياتها حلية. زيني يدا شوهت خشونة الخدمة جمالها ونامي على زند الفتاة الغريبة بدلال القبلة والتحبب! نامي هناك واسعدي، ولو ساعة، قلبا بائسا يحسب السعادة في الغنى!

نامي هناك وانسيني، ولكن!

إن كان لديك ذاكرة تذكر، يا ساعتي الصغيرة المحبوبة، اذكري لحظة ما شهدته معي من المسرات واللهفات، اذكري واحفظي ما تعرفين!

ولكن.. ألست ابنة الزمان الذي ننسب إليه في ضعفنا كل شئ وهو في قوته لا يبالي بشئ؟ ترين بأي حافظة تذكرين، وبأي ذهن تتأملين؟ إنما علاماتك مداد قد تحجر، وعقربك اصبح يشير إلى علامة يجهل منها المعنى، وأنت آلة

ليس إلا، وإن كنت آلة الآلات المثلى.

أنت ابنة الزمان الناسي، وأنت مثله لا تذكرين!.

مي

إلى لطفي السيد

سنة ٩١٤

(المحروسة)

حضرة الأستاذ الفاضل:

في نفسي كلمات جائلات منذ ثلاثة أيام، إذا حاولت الإفصاح عنها باللسان أو بالقلم تبعتها حتى علامة الاستفهام.

ارفعها إليك لأنك كتاب حي يرجع إليه الباحث في ساعة الحيرة والتردد. ولقد جرأني على إبداء فكري اني وجدت في خطبت الجميلة ذكرا لوالدة فقيد مصر، وذكرت من أجلها جميع الأمهات القرويات الساذجات اللائي أعطين لمصر أعاظمها. لم تضرب صفحا على جهلهن وبساطتهن ومع ذلك فقد اعترفت بأنهن مهبات فتحي باشا وأمثاله. كأنك اردت أن تنبه السامع والقارئ إلى أن

الخواطر العظيمة – كما قال فوفينارج – تأتي من القلب، وأن على هذا القياس يكون ذكاء القلب أعظم ذكاء.

أما سؤالي فها هو: لماذا لم يكن للنساء نصيب في حضور حفلة التأبين؟

حفلة جليلة أقامتها مصر لتأبين فتاها. ومصر كسائر بلاد الله – على ما أظن – تتألف من رجال ونساء. لم تكن الحفلة قاصرة على هيئة الحكومة أو على طائفة المحامين والعلماء. بل كانت عمومية جامعة بين المحمدي والعيسوي والشرقي والأجنبي على السواء. غير أنكم نبذتم منها جنسا واحدا: وهو الجنس الذي منه رفيقة مهد فتحي باشا ورفيقة نعشه – والدته وزوجه. نبذتم ذلك الجنس الذي يعيش بعيدا في ظل النصر الشامل يوم يكون الرجل غالبا قاهرا. حتى إذا نهش نفسه اليأس وأدماها الألم، وخالطتها وحشة الموت عاد إلى جنب الجنس الذي لم يخلق إلا ليكون شقيا – الجنس النسائي.

قالوا أن مثلا حيا واحدا لهو أنفع من الف درس نظري تمليه كتب المتقدمين والمتأخرين، ويلقيه أبلغ الفصحاء من المتكلمين. فإذا شكا الرجال بحق أو بغير حق ثرثرة النساء وخفة نفوسهن وميلهن إلى الزخرف والزركشة و "الدنتلا" واعتبروهن غير حريات بأن يشاركنهم في الحياة القومية، فما بالهم لا يسعون بالتقريب بين الافهام وحذف ما بين مدارك الجنسين من مسافة يزعمونها شاسعة!

غريب أن تبخلوا على المرأة بحضور اجتماع يرفع نفسها إلى سمى درجات التاثر المفيد، ويلفت عقلها إلى هيبة العلم وعظمة الفضل، ويعلمها إجلال الوطن ورجال الوطن. مع أنكم تسمحون لها بالذهان إلى هذه الأوبرا نفسها لحضور الروايات التمثيلية. روايات قد يكون لبعضها اثر طيب في الذهن ولكنه بعيد عليه أن يلمس من نفسها الموضع الذي كان ذلك الاجتماع قد يلمسه.

قد تقولون أن المرأة لا تفهم معاني التأبين كما يفهمها الرجل، فأجيب أننا اهتممنا بالخطب والقصائد اهتماما

عظيما واستعملنا عند قراءتها ملكتي النقد والاستحسان. وهذا ينم عن استعداد فينا غير قليل تتجاهلونه عمدا أو تجهلونه سهوا واهمالا.

وإذا قلتم أن فتحي باشا كان عالما مفكرا وأن العلم والتفكير من خصائص الرجال. أجبت أن العالم الحقيقي والمفكر المخلص هو ذاك الذي يكتب للرجال والنساء بلا تفريق، ويود أن تكون كتاباته هدى ووحيا لجميع أفراد الأمة. بل يود أن تكون ذلك لشعوب العالم اجمعين. ولا شك أن فتحي باشا ذلك الرجل. إذ لا رأيت أنا ولا رأى أحد على غلاف كتبه كلمة كهذه "محظور على النساء" أو "حقوق المطالعة محفوظة للرجال".

لما قرأت الخطب والقصائد حملني الخيال إلى ذلك الاجتماع، ورأيت الجمع ينصت كأن صوت الخطيب والشاعر يجاهر بما يجول في نفس الجمهور. رأيت الجمع منحني الرؤوس كأنه عالم بوجود قوة خالدة في فضاء المكان يتهيب النظر أن يرتفع إلى هيولاها، ويخاف الفكر البحث

في ماهيتها، بينا القلوب تتردد همسا: هي الروح المودعة ترفرف على جباه ذاكريها.

موقف جليل فيه الذكرى افصح خطيب، والصمت العميق أحد تصفيق، وآهات الحياة حكم باهرات، والدموع، دموع سعد باشا!..

إنها دموع عظيمة آتية من بعيد، من أعماق المحبة المقدسة. إنها سيال حب تدفعه ابدية القلب الراحل في لوعة القلب الباقي. إنها دموع بسيطة طاهرة، بليغة، ابكت من شهدها وما برحت تستفز دموع من سمع بها. دموع رجل نسي كل شئ في لحظة واحدة، غير ذاكر إلا أنه كان له أخ خطير غاب غيابا أبديا لا لقاء بعده في هذه الدار. أراد اسداء الشكر إلى الاحياء، فما عثر إلا على كلمات الوداع للراحل فلم يجد قلبه ولسانه وعيناه إلا بتلك الكلمات. وهي العبرات.

هذه آية البيان.

لو حضر النساء هذا الاجتماع لاخذن عنه أمثولة طيبة وحفظن منه في نفوسهن أثرا جليلا.

هذا سؤالي يا سيدي الاستاذ، الحقته بالحواشي الطويلات.

لعلك لا تجده بعد مطالعته سؤالا بل تقريرا. وقد تحكم أن ما حسبته انا إشارة استفهام ليس إلا علامة آسف.

لك أن تحكم بما تشاء، وكلمتي هذه هي ما تريد أن تكون.

مي

إلى يعقوب صروف

في كانون الثاني سنة ٩١٩

كان الدكتور صروف قد أهدى إليها في سنة **٩١٩** مجموعة المقتطف، فبعثت إليه بهذا الكتاب:

استاذي العزيز

بالأمس غمست قلمي الصغير في أشعة قوس السحاب، لأخط به تحية للدكتور هوردبلس... من هو الدكتور هوردبلس، وماذا يهمني؟. إنه هذا الرجل الأميركي.. وأنا الفتاة اللبنانية..

هناك على شط الأزرق البعيد كلية تلثم الأمواج قدمها ليل نهار.. إني أعبد البحر لأني أرى فيه أتم صورة للأبدية على الأرض، وأعبد الكليات لأنها...

ما أكثر الناس ولوعا بالأسماء الضخمة، ولكن فلنحل قشرة الظواهر قليلا، يصبح امتحان الجوهر ميسورا. ما

الكليات إلا كتاتيب تعلم المبادئ والمبدئيات. والمرء بادئ أبدا مهما كبر علمه، واتسعت معارفه.

إذا كانت المدارس الابتدائية تعلمنا القراءة، فإن الكليات والجامعات لا تعلمنا إلا ذلك.. تلك تعلمنا كيفية جعل الحروف كلمات وعبارات. وهذه تعودنا تحويل الكلمات والجمل معاني وأفكارا.. تلك تلقننا أبجدية اللغة، وهذه تدفع إلينا أبجدية العلم، أي أبجدية الحياة والنور.

ولئن كثر الجالسون على مقاعد الجامعات، وكثرت العيون المحدقة بحروف الضياء الخفي، فما أندر العقول المتنبهة لهمس الوحي، وأقل الأيدي التي ما تسرب النور إلى ثنايا فكرها يوما إلا رفعت مصباح العرفان تهزه في جو الحياة.

هذا ما أردت أن أحيي به الدكتور هوردبلس، وأحيي في شخصه الكلية التي أنجبت لنا من أنجبت.. الكلية التي تعلمت أنت فيها أبجدية النور.

والآن التفت إلى الزاوية اليمنى، فأرى الأثر النفيس الذي وضعته يدك الكريمة في تاريخ نهضتنا أولا، ثم في مكتبي هذا الصغير. فحق لي القول بأن مقتطفنا صار مقتطفي أنا.

فتحت اليوم أحد الأجزاء، فرأت عيني صورة رجل ترصع الأوسمة صدره، فقلت في نفسي أن أوسمتك أنت فوق جميع الأوسمة جمالا. كل سنة من سني المقتطف وسام خالد على صدرك لا تنال الصدأ من تبره، ولا تعرف الغش درره، بل إن ما فيه من السناء أبدي التألق على كر الدهور.

كلما عكفت على مطالعته رأيتني طفلة صغيرة، وخلتك نبيا يقودني بيدي في حديقة فكرية، أشجارها من غرس نشاطك، وإثمارها حركات قلمك، والأطيار المغردة على أفنانها خيالات أفكارك. فما أبصر شجرة أو ثمرة أو زهرة، إلا سألتك أهي من صنعك؟.. فتضحك أنت من سذاجتي وتسير بي على ناحية جديدة من الحديقة الفيحاء،

حيث أجد جمالا جديدا، وتنسيقا بديعا. وإعجابي وسروري يتجددان مع كل خطوة من خطواتي.. أشكرك شكرا يعادل اغتباطي وفخري بهذه الهدية الثمينة.

مي

إلى يعقوب صروف

في شباط سنة ١٩١٩

طالعت مي مجلدات المقتطف فوقفت عند مقالات دبجها عن بحيرة قارون بعنوان "فتاة الغيوم" فذكرتها له في أول الرسالة ثم قالت:

وقد أدى بي ذلك إلى مطالعة كثير مما كتبته عن المصريين القدماء وآثارهم وفنونهم. وكل فصل أجمل من ماضيه.

لا شك عندي في أن كل كاتب يتمنى أن يكون له من يذكره على هذه الصورة بعد موته، وأتمنى أن ينالني ما نال باحثة البادية من حسن الحظ لأن المخلصين قليلون حتى بعد موت الكاتب. والعداء له والغيرة منه، وتعمد تصغير شخصيته والنيل من مقامه يبرز إلى الوجود بعد سكونه في قلب الثرى. وعندنا على ذلك براهين شتى. وكفى أن نذكر ادجار الن بو المسكين.

نعم أتمنى أن يأتي بعد موتي من ينصفني، ويستخرج من كتاباتي الصغيرة المتواضعة ما فيها من روح الاخلاص، والصدق والحمية والتحمس لكل شئ حسن وصالح وجميل لأنه، كذلك، لا عن رغبة في الانتفاع به.

وقد قال قوم أن هذه صفة حسنة. وإذا كانت لي صفة فهي تنحصر في هذه.. وأنا سعيدة بها لأنها كل شخصيتي.. بل أتمنى أن أموت في حياتك أنت لتقوم لي بذلك العمل المبارك، فأكون خالدة بخلود قلمك الذهبي لا باستحقاقي!

مي

إلى يعقوب صروف

في آخر حزيران سنة ٩١٩

... وأظن الأفضل أن أؤجل نشر ما بقي عن الباحثة إلى ما بعد عودتي من سوريا إذ أكون نلت من الراحة اللازمة فينجلي مني الخاطر.. ولما أراني تعبة أفكر فيك وأقدركم أنت تعب كذلك، وكم يجب أن تسافر لتبديل الهواء ومشاهدة مناظر جديدة ووجوه جديدة. إن لهذا الانتقال تأثيرا كبيرا في أي أحد من الناس ولكنه للكاتب – خصوصا إذا كان مفكرا مجدا من طبقتك – أكثر ضرورة منه لأي رجل غيره..

يسرني جدا استحسانك كلامي عن فيكتور هوجر. ولكن ما هو ذلك الكلام إذا قابلنا بينه وبين ما تبديه أنت في الموضوعات العلمية والاجتماعية والفلسفية والنقدية حتى في أبسط أحاديثك بحيث أني لو حملت قلما ودونت كلامك لجاء منه خطاب أو محاضرة عالية الديباجة، مترابطة الأجزاء على أتم

نهج عربي.. هذا حديثك وأنت تعرفه. وقد لا تعرفه، ولكنه كذلك على كل حال. وما أناقة رسائلك إلا من أناقته، وما جمال هذا وتلك إلا من جمال الفكر الموحي.. إنما المرء مفصح أبدا عما يساوره من الخواطر ويخالطه من الأفكار.

قرأت في المجلد العاشر مقاليك البديعين عن ملتون والمعري، ثم عن ابن خلدون وسبنسر، والمقابلة بين كل اثنين منهما.. ما أملح المقابلة وأتمها، وما أبلغ تلك الجمل القصيرة الموزونة ذات الألفاظ السهلة الفخمة، والطف من كل ذلك أنك نظمت شوارد ملتون الشعرية أبياتا عربية عصماء، ولا أعرف شيئا أكثر صعوبة من ترجمة الشعر شعرا.

وإني لا عجب كيف توصلت دفعة واحدة إلى اتقان الإنشاء في عصر لم يكن فيه الإنشاء إلا حواشي وألفاظا وزوائد لا تعني إلا قلة المعنى.. كيف توصلت إلى الأسلوب الكتابي الذي جمع بين أناقة اللغة ولباقة التعبير وعظمة الفكر وسعة المعرفة والاطلاع؟

مي

إلى يعقوب صروف

سنة ٩٣٠

اتهمها مرة الدكتور يعقوب صروف، في رسالة بعث بها إليها، بأنها تفكر بلغة أوروبية قبلما تعبر عن رأيها بالعربية. فأجابته بالرسالة التالية:

"استاذي العزيز

"لما جاءتني رسالتك يوم الاثنين الماضي كنت غارقة في مطالعة مراسلة شائقة بين فيلسوفين عظيمين: فولتير ودالمبير، مراسلة دائرة حول أعظم أثر أدبي رأته القرون الحديثة: دائرة المعارف الفرنسية.

"يومئذ كان صاحبنا فولتير منفيا في سويسرا وكان دالمبير في باريس يتعاون وديدرو والانسيكلوبيديين الآخرين في إصدار دائرة المعارف جزءا بعد جزء في ظل سليمان الشمال – كما كان فولتير يسمى فريدريك الكبير في ظله

المعنوي فقط – وهو الذي كان ينقد بعض فلاسفة فرنسا وعلمائها رواتب شهرية تكفل لهم الغذاء، والكساء، والسكن، في حين أن الملكية الفرنسية التي كانت يومذاك في أعلى أعالي مجدها لم تكن تفكر فيهم إلا لتطاردهم وتنفيهم وتحرق مؤلفاتهم!! وبعد أن وعدتهم هذه بالمساعدة الأدبية قامت مدفوعة من الاكليروس تصادرهم وتكثر العقبات في سبيلهم.. فرضت عليهم الرقابة، فقبلوها مرغمين، وعينت من الرقباء أجهلهم، فصار هؤلاء يحذفون كل ما لا يفهموم، ولم يكونوا يفهمون شيئا!

"في هذه الحالة المدلهمة أخذ الرجلان الكبيران يتراسلان، وكان فولتير يساعد دالمبير عن بعد في تأليف الانسكلوبيديا. وكلاهما يشبه رفيقه بما لديه من عظمة فكرية ورغبة في خدمة المصلحة العامة وكره للجهل والدعوى والاستبداد. كذلك تشابهت منهما الرسائل في التظلم وبث الشكوى، وفي معرفة الطبيعة البشرية والتساهل لغباوة الأغبياء. وما أقل كلمات المرارة الخارجة

من قلبيهما المصدوعين. وما أعذب كلمات المؤاساة من قلميهما القادرين الملجمين. وما أبعد نقطة يدركها فكراهما في مدى المستقبل المنبسط أمامهما!

دائرة المعارف موضوعهما الأولى يحومان حوله باهتمام كما يهتم الشريكان في عمل يخلدهما أمام وجه الأجيال، إلا أنهما لا يقتصران عليه، بل ترفرف حول هذه النقطة الجوهرية أسراب المواضيع الاجتماعية والفلسفية والعلمية والدينية والسيكولوجية، حتى إذا عثرا على معنى ظريف أو نكتة أو ملحة، وقفا عندها يضحكان كلنهما طفلان لم تصادرهما حكومة، ولم يهددا بعقوبات إن لم تكن عقوبات محكمة التفتيش بالاسم، فهي هي بالذات، ولا تقل عنها قسوة وهولا.

"كنت أقرأ معجبة ضاحكة مكتئبة متعزية معهما، ومسبحة الله كما يفعل المؤمن إزاء مشهد طبيعي رائع. أسبحه لأنه أبدع هذه العقول الكبيرة والنفوس السامية والأذهان المتوقدة، وأغبط كلا منهما على صديقه العبقري

مقابلة بين هذه العقول، وبين عقل إحدى جاراتنا الاسرائيليات التي كانت في ذلك الصباح قد أقامت القيامة بين برابرة الدار وطهاتها وخدمها أجمعين لتصل إلى حل هذه المسألة الرياضية الهائلة " ربع الخمسين كام؟"

في تلك الدقيقة جاء كتابك ترافقه المقدمة الهمايونية فأغمضت عيني قائلة:

(مالي وللفيلسوفين أغبط الواحد منهما على الآخر، وأنا قد أسعدتني الحياة بصديق مثلهما أحدثه وأراسله، وأتلقى تأثيره الفكري العالي!).

"ثم فضضت الرسالة التي استأذنك بتسميتها روسية (ثورية) مرتين: روسية من حيث أنها كالسلطة الروسية مخلوطة تواريخ وخطوطا وألوان حبر – وروسية من حيث أن نار الثورة الحمراء تشتعل فيها اشتعالا من أول كلمة إلى آخر سطر.

"تجاهر بأنك ناقم ساخط راغب في معاقبتي وتعنيفي. وما هي ذنوبي؟.. ليس من الضروري أن يكون لي ذنوب في عالم الوجود. ما دمت راغبا في إيقافي موقف المتهم، فإنك تخلقها من العدم. حتى المقدمة العظيمة لا تخلو من وخزة هنا، ونغزة هناك، ولطمة هنالك.

"لقد قلت مثلا أني أفكر بلغة أوروبية، قبلما أعبر عن رأيي بالعربية – قلت ذلك، ولم تسمح لي بالاحتجاج. وهل دفاعي يجدي نفعا إذا استشهدت الإخلاص أني ساعة اكتب العربية أفكر بها، ولا أفكر بلغة أجنبية إلا عرضا كما يفعل جميع الناس الذين إذا ما استحضروا شخصا أو شيئا استحضروا معه اللغة التي كانت مستعملة ساعة رأوه أو سمعوه لأول مرة.

"اعترف بأن معرفتي اللغات الأخرى قبل العربية جعلتني أشبه جماعتنا بتلك المرأة التي لم تخرج في حياتها من قرية لا تزيد منازلها على السبعة عدا. وكانت تقول فيها أنها أجمل مدينة في العالم، وأنها أم الدنيا. وتلك المعرفة جعلتني

أسائل نفسي كلما قرأت مقالا لبعض من يدعون أعاظم الكتاب وفطاحل الشعراء قائلة: "وماذا وضع هؤلاء الأقطاب من ذاتيتهم فيما كتبوا، بل أين تلك الذاتية التي لا أجد لها أثرا؟"

"ثم مالي أنا أشرح ميولي وأبرر سروري اللغوي إذا كان هناك من يستحق الملام، فأنت هو. أنت الذي تنصلت من الاسجاع والحواشي والزوائد يوم كانت هذه روح العصر.. لو أردت أن أقلد أحدا لقلدتك، لكني أكره التقليد الذي يشوه المقلد ويمسخ المقلد وأنا أحب أن أكون أنا أنا في كتابتي.. — يا لطيف ما هذه الكبرياء والدعوى! هكذا ستقول أنت.. — يا لطيف ما هذا الظلم والاستبداد. وهكذا أجيبك أنا..

"وهاك تهمة أخرى. تقول في رسالتك أني انتظر أول إشارة لاعفيك من المقدمة، كم أنت شرير ساعة تقول ما لا تعتقد. ولكني لا أريد أن أخاصمك، وأغفر لك كل ما جاء في الرسالة إكراما للمقدمة.

"اكتب إليك والشمس تنزل درجات الأفق، وقد

سبحت غيوم المساء كما في بحيرات من العسجد والعنبر والزبرجد والياقوت. في جميع أطراف الأفق تتوهج حرارة الربيع وتبدو يقظة الطبيعة. وعلى البسيطة مثل هذه اليقظة وتلك الحرارة. ما أجمل الشجيرات التي انبتتها لنا كرما مصلحة التنظيم، تبسم بأزهارها الكليلة على جانبي شارعنا.. هل ذهبت اليوم لشم النسيم، أم اكتفيت بالسير في شارع عماد الدين؟. ربما كنت الآن سائرا في الخلاء تنظر إلى هذا الغروب الساحر وتفكر بي.. أما أنا فلم أخرج من البيت في هذه الأيام التي كثرت فيها على المعاكسات.

"فامي تشكو ذراعها، وأبي يشكو ألما في ضرسه، والتليفون ملخبط زي عقل العفريت كما يقول البربري. وهذه من الدواهي الصماء حقيقة.. وأنا شكتني أبرة غليظة تحت ظفر إبهامي. ثم رأت حضرة مدموازيل توتو ان تتحفني بصداقتها، وتعالجني بطبها الخاص، فعضت على الأصبع المريضة ومزقتها بمخالبها، فقلت ضاحكة: "ما أشبه القطط بالفلاسفة أحيانا!.."

مي

إلى الدكتور صروف

سنة ٩٢٠

ياذا التاج والصولجان

نهضت الساعة. وبي فكرة واحدة وهي رسم مجموعة عواطفي طاقة تهنئة وتكريم لمناسبة يوم ميلادك الجميل. لو أن أرسم تلك الطاقة غضة نضرة زاهية جزلة، كما هي في الأصل الخفي. وارد أن أنفث في القلم قدرة سريعة خلابة لأقول ولو في سطر واحد ما أشعر به، وما أريد ان أعبر عنه. ولكن كيف أفعل وأدوات الرسم مبعثرة في هذا البيت الذي حق عليه اسم "بيت الراحلين". إننا عائشون منذ أمس الأول في عجاجة غبار وتشويش تكتنفنا رعايتها وتشملنا غايتها من كل صوب وحدب.

وضياع أدوات الرسم وتشتت آلات الكتابة خير، لأنك سترسل إلى نفسي نظرتك التي لها من الرياضي الهدوء والتحليل، ومن المفكر الإدراك والنفوذ، ومن الشاعر العطف والرواء، فترى

تلك الطاقة في تربتها النفسية ازهارا تتهدل على أغصان مهما عصفت فيها المعاكسات، وكافحتها أنواء الحياة، فإنها لا تزيد إلا متانة ونضارة. ونظرك فيما وراء المنظور أصدق وأبلغ من تعبيري المنضد في عالم المحسوس.

لو كنت اليوم في لبنان لقضيت فريضة الحج إلى حيث مشرق الشمس الفكرية منك وسيكون من مسراتي الكبرى في هذا الصيف أن أزور البقعة الصغيرة الكبيرة، التي بلا ريب سيقيمون لك فيها تمثالا يوم يجتاز الشرق حد التحمس الوقتي إلى تأدية الواجب نحو كبار رجاله، الذين هم الكبار حقيقة، وليس أولئك الذين زعمهم في بلاهة كبارا.

كذلك اليوم يزيد وضوح فكرة عندي انشئها، وهي أن أقيم أنا لك تمثالا من نوعه ومن صنعي الخاص. وذلك بمقالات متتابعة في المقتطف أحلل فيها شخصيتك. واستخرج عناصرها المختلفة، فترغم على نشرها عملا بحرية النشر، وأكيدك، وابهج نفسي ولاسيما إني أؤدي نحوك

واجبا كم أهملناه لأننا جهلناك. عسى توفقني الحياة إلى نحت ذلك التمثال فأقول في كتاب جامع ما الخصه الآن بقول القديس فرنسيس: "ليس أنبل في الحياة من العمل النبيل". فكيف إذا كانت الحياة كلها سلسلة أعمال نبل وكرامة. كيف بها إذا كانت كلها إشارة متمرن في رفع قبس النور والعرفان وسط دياجير الجهل والخمول!

تلك كانت حياتك، وأنها لتجمع في هذا الصباح أمام عيني كشئ لامع جميل، بل كهذا الفجر الذهبي الذي يملأ الجو بتهاويل الصباح الأغر، فعش طويلا طويلا لتظل متابعا ذلك العمل النبيل الذي ليس في الحياة أنبل منه، لتظل مستمرا على إعلاء يدك بتلك الإشارة المعنوية إشارة رفع قبس النور والعرفان.

عش دواما وقرينتك الجليلة والذي تحبان في شباب القلب والفكر والجسم والأمل. وأقبل مني ما تشاء من عواطف المحبة والإعجاب والتهنئة والتمني الصادق الحاد.

مي

إلى جبران

في ٦ كانون الأول سنة ١٩٢٠

... لما كنت أجلس للكتابة كنت أنسى من وأين أنت، وكثيرا ما أنسى أن هناك شخصا، إن هناك رجلا أخاطبه فأكلمك كما أكلم نفسي وأحيانا كأنك رفيقة لي في المدرسة. إنما كانت تطغو على تلك الحالة المعنوية عاطفة احترام خاص لا توجد عادة بين رجل وفتاة. أتكون المسافة وعدم التعاون الشخصي والبحار المنبسطة بيننا هي التي كانت تلبس حقيقة ذلك التراسل ثوب الخيال؟ قد يكون. غير أن مكانتك في اعتباري وتقديري كانت مصدر هذه الثقة التي ظهرت منذ نشأتها كأنها فطرية بديهية لم تنتظر الوقت لتقوى ولا التجربة لتثبت؟ فوصلت الرسالة التي سبقت "النشيد" فاحجمت إزاء بعض الكلمات خوفا مما قد تجر إليه. ومرت أسابيع ستة أو سبعة دون أن أكتب لأني كنت أقول لنفسي: "يجب أن نقف هنا". ولكننا لم نقف بل خطونا خطوة، بل قمزنا قمزة تذكر

في "النشيد الغنائي". وكنت في الاسكندرية إزاء البحر الذي يجلب التأمل وينمي حب الاختلاء. ولم أشأ أن أجعل لمعنى النشيد أهمية خطيرة فكتبت أقول: أنا أردت أن تحصر مراسلاتنا في مواضيع فكرية. فقلت لك صريحا أنني التمس في رسائلك الفائدة التي أطلبها في كل مكان.

... أنت قيدتني (مذنبة) في دفترك، وقمت تشكو لأني كلما "حدقت في شئ أخفيه وراء القناع، وكلما مددت يدا أثقبها بمسمار. نعم فعلت ذلك متعمدة". تعمدت " قطع تلك الأسلاك الخفية التي تغزلها يد الغيب وتمدها بين فكرة وفكرة وروح وروح. وصرت أصرف المعاني وأمسخ الأسئلة وأضحك عند الكلمات التي تملأ العينين دموعا. وهل كان لدي وسيلة أخرى لأحولك عن هذا الموضوع وأذكرك أني وحيدة أبوي؟ قد لا يكون في العائلة الغربية إلا ولد واحد فيقذفون به من انكلترة إلى الهند، أو فتاة واحدة فترحل من فرنسا إلى الصين بلا جلبة ولا ضوضاء. ولكن أين نحن من هؤلاء، ونحن شرقيون. تعمدت ذلك خصوصا لأوفر على نفسي عذابا هي في غنى عنه

ولأتحايد كل كلمة تقربني من ذلك الموضوع الذي ملأ روحي شوكا وعلقما في هذه السنوات الماضية. ففهمت ما أريد وإنما في غير معناه الحقيقي، وفهمته على وجه لم أقصده. ثم سطت عليك الكبرياء، كبرياء الرجل، فنسيت أن السكوت لا يحسن بيننا على هذه الصورة نحن اللذين تكاتبنا أبدا كصديقين مفكرين نسيت أن الموضوع الآخر جاء عرضا. وما دام أنه لم يكن الأصل فقد كان له أن يتلاشى دون أن يؤثر في علاقاتنا الأدبية الفكرية. أما صدق القائلون أن صداقة الرجل والمرأة رابع المستحيلات. آلمني سكوتك من هذا القبيل، وأرهف انتباهي، فاعلمني أنك لم تشاركني ارتياحي إلى تلك الصداقة الفكرية لأنك لو كنت سعيدا بها مثلي، لما كنت رميت إلى أبعد منها. علمت أنني كنت وحدي حيث كنت أظننا اثنين. وقدرتك أنك لم تحسب تلك سوى مقدمة وأنا كنت أقدرها لذاتها. وصار معنى سكوتك عندي "أما ذاك وأما لا شئ.. وأنت أدرى بأثر هذا في نفسي".

مي

إلى جوليا طعمه دمشقية

كتبت إليها رسالتها الأولى تعرفها فيها بنفسها بقالب طريف:

عزيزتي

... أصحيح أنك لم تهتد بعد إلى وصورتي فهاكها: استحضري فتاة سمراء كالبن أو كالتمر الهندي كما يقول الشعراء أو كالمسك كما يقول متيم العامرية وضعي عليها طابعا سديميا – فليسمح لي البلاغيون بهذا التعبير المتناقض – من وجد وشوق وذهول وجوع فكري لا يكتفي وعطش روحي لا يرتوي، يرافق أولئك جميعا، استعداد كبير للطرب والسرور واستعداد أكبر للشجن والألم – وهذا هو الغالب دوما – وأطلقي على هذا المجموع اسم "مي" ترى من يساجلك الساعة قلمها.

مي

إلى الدكتور صروف

سنة ١٩٢١

بعثت إليه برسالة مع إحدى محاضراتها التي اعتادت أن تنشرها في المقتطف فقالت في تواضع كبير:

ياذاالصولجان

لدي كلام كثير منه كلام إعجاب بالمقتطف عموما، وباب المسائل خصوصا، ومنه كلام عتاب وتعنيف. نعم يا ذا الصولجان، أقول تعنيف وأعنيه بلا مداورة، وهو تعنيف لاذع، ولكن ضيق الوقت يجعلني أقصر الكلام على ما يتعلق بالمحاضرة الواصلة إليك.

فإذا رأت الذات الهمايونية أن تنشرها كلها دفعة واحدة كان ذلك. وإذا رأت أن تشطرها كفؤاد نعوم بك شقير القائل في كتاب "طور سينا":

شطرت فؤادي من وسطه   فشطر لذاك وشطر لذا

يعني شطر للقطر السوري وشطر للقطر المصري – قلت إذا رأت الذات الهمايونية أن تعامل المحاضرة كما عامل نعوم بك فؤاده، فإن إشارتها حكم وإطاعتها غنم، وإذا رأت إلا تنشر ولا تشطر، فأرجو أن تعاد في القريب العاجل أو أن أخبر عما قدر لها لأكون على بصيرة.

صباح سعيد وأسبوع سعيد يا أستاذي. ما أحلى أن أذكرك في هذه الساعة العذبة على توقيع شدو الأطيار ونفحات النسيم. إني أذكرك وأدنو بالخيال من الصولجان المحبوب مداعبة ومتباركة معا.

مي

إلى الغريب؟

في سنة ٩٢٢

أنا وأنت سجينان من مساجين الحياة.

وكما يعرف المساجين بأرقامهم يعرف كل حي باسمه.

وقد التقينا وسط جماعات المثفقين فيما بينهم للضحك من سواهم حينا، والضحك بعضهم من بعض أحيانا.

أنا منهم وإياك غير أن شبهك بهم يسيئني، لأني إنما أقلدهم لأريك وجها مني جديدا. وأنت، أتجاريهم بمثل قصدي أم الهزوء والاستخفاف فيك طوية وسجية؟

ولكن رغم انقباضي للنكتة منك والظرف، ورغم امتعاضي للتغافل منك والحبور، أراني وإياك على تفاهم صامت سديم يتخلله تفاهم آخر يظهر في لحظات الكتمان والعبوس والتأثر.

بنظرك النافذ الهادئ تذوقت غبطة من له عين ترقبه وتهتم به. فصرت ما ذكرتك إلا ارتدت نفسي بثوب فضفاض من الصلاح والنبل والكرم، متمنية أن انثر الخير والسعادة على جميع الخلائق.

مي

إلى الفتاة المصرية

سنة ١٩٢٣

الحياة أمامك، أيتها المصرية الصغيرة، ولك أن تكوني فيها ملكة أو عبدة:

عبدة بالكسل، والتواكل، والغضب، والثرثرة، والاغتياب والتطفل والتبذل. وملكة بالاجتهاد، والترتيب، وحفظ اللسان، والصدق، وطهارة القلب والفكر، والعفاف، والعمل المتواصل.

فإن عشت عبدة بأخلاقك كنت حملا ثقيلا على ذويك فكرهوك ونبذوك، وإذا عشت ملكة أفدت أهلك ووطنك وكنت محبوبة مباركة.

فأيهما تختارين؟

إذا اخترت الملك فروضي نفسك على المكارم منذ الساعة، لأن الملوك يسلكون طريق العز منذ الصغر.

مي

إلى الكتور صروف

اذار سنة ٩٢٣

استاذي الدكتور العلامة

أشكر لك المقال الممتع الذي كتبته عن نقد الكتب في عدد فبراير وكان عليَ أن أصمت تهيبا عند لهجته الصادقة على أن لدي شيئا أضيفه.

لم أعن "مجلتكم" في كلامي عن قصور الصحف، ولا عنيت سواها من المجلات المنتبهة لما فرض عليها، فتحدثنا كل شهر عن كتب ونشرات ومجلات وإعداد ممتازة من الصحف بكلام كله إفادة. فهي من هذه الوجهة ترضي الواجب العلمي الذي تعمل للقيام به بكرامة واستاذية.

أما ما ذكرته عن الصحف الأجنبية فأستأذنك بالا نتباحث فيه. لتلك الصحف شأنها في التفاهم مع جمهورها وإرضاء بيئتها. إننا بعيدون عنها. ولأغراضها ودخائلها

جاهلون. أنت تعرف منها بالاختبار بعض أساليبها، اما أنا فأجهلها تماما. فإذا حدثت عنها كنت دعية متطفلة. وعلى كل، فليس كل سار في الغرب جديرا بالاقتباس في الشرق دون مراعاة الحاجة المباشرة.

وإنما أسألك: كيف يمكنني، انا الجمهور أن أطلع على حركة التأليف والترجمة في البلاد، في مختلف الموضوعات الفلسفية والعلمية والاجتماعية والتمثيلية والأدبية الخ؟ كيف يمكنني أن أعلم بصدور ما يهمني من الكتب، سواء كان اهتمامي بها اضطرارا للعمل وكسب الرزق، أم للفائدة الفكرية، أم للتفهكة وإرضاء للرغبة؟ إن رسائل الأخبار الكبرى هي الصحف السيارة، وكل الغاية منها إيصال الأخبار إلى الجمهور واطلاعه على ما يجري في بيئته وفي العالم من الشؤون والحوادث. فإن لم تنقل لي تلك الصحف ما وجدت لنقله ونقل نظائره، فمن ذا يكون الرسول بين المؤلف الذي كتب للجمهور، وبيني أنا الجمهور الذي اتطلع إلى ما ينشر لي مؤلفي؟

تعلم الصحف الغاية من وجودها والسر من نشرها، فتراها تذيع أمثال الأخبار التالية:

"تشاجرت زينب بنت علي في الخرنفش مع جارتها المدعوة حنيفة بنت أحمد السقا فتضاربتا وجرحت أحدهما الأخرى جرحا طفيفا في يدها تقتضي معالجته يومين كاملين.

أو

"سطا اللصوص ليلا على عزبة" ما أدري ايه "فاستيقظ الأهالي ففر اللصوص ولم يوقف لهم على أثر" الخ.

فاكرم علينا يا أفندم، دام فضلك، برأيك في نشر أمثال هذه الغرر!.

قد يكون من واجب الصحافي أن يفسح صحيفته لما هو أتفه من هذا، فكيف بالوقائع الفكرية والأدبية التي هي من أصدق مقاييس تطور الأمة؟

أقول إذا أن الصحافي يتحتم عليه – وليس له في ذلك الخيار – يتحتم عليه أن يذكر في صحيفته كل كتاب يرسل

إليه. أما الركون إلى الأغضاء فاجحاف في حقوق المؤلف، أجحاف في حقوق القارئ، أجحاف في حقوق الجمهور الذي له أن يطلع على قوائم ما تنتجه أفراده، وأجحاف في حقوق الصحافة ذاتها التي هي بذلك السكوت تسجل على نفسها القصور وعدم المبالاة بما لا يجوز إغفاله.

أفهم، واعلم بالاختبار، إن النقد عمل شاق دقيق يستغرق وقتا طويلا ويتطلب معرفة واسعة، وذوقا مهذبا، وبصيرة شفافة، وإحساسا حيا يفهم العدل كما يفهم الجمال وكما يفهم أنظمة الحياة، فهو لذلك غير ميسور لكل من أدعى حمل لوائه. والصحف في شاغل لأنهما كما بالمشاكل السياسية والقومية. فلا أقل من أن يؤدوا هذا الواجب وبان يذكروا باختصار اسم كل كتاب يهدي إليهم بلا تحيز ولا استثناء، مع اسم مؤلفه وموضوعه وثمنه والمكتبة التي يباع فيها، حتى إذا شعر كاتب أو قارئ باندفاع خاص في سبيل الكتاب كتب ما شاء في نقده أو تمحيصه أو معارضته أو تحبيذه.

الصحافة سجل الوقائع اليومية والمرآة التي ينعكس عليها من نفسية البيئة الصور المتتابعة التولد – فأي الوقائع وأي الصور تفضل ثمرات المطابع ونتاج الأذهان والقلوب؟ بل يوم تقومون، أيها المفكرون، تزنون كفاءة الأمة وتحصون خطاها في سيرها إلى الأمام، فهل لكم من وثيقة أصدق من الكتاب والفن والمتحف؟ كلا! وذاك ما تهملون!

والآن وقد فرغت من الخصومة التي يحسبها سادتنا الرجال عنصرا ملازما للمزاج النسوي، أعود ضاحكة من قلمي الذي تمتع لحظة باستقلاله التام وقام يناطح صخرة الصحافة المنيعة – استغفر الله! عنيت صرح الصحافة المنيع.

مي

إلى جبران

في ١٥ يناير سنة ١٩١٤

... جبران! لقد كتبت كل هذه الصفحات ضاحكة لأتحايد كلمة الحب. إن الذين لا يتجارون بمظهر الحب ودعواه في السهرات والمراقص والاجتماعات ينمي الحب في أعماقهم قوة ديناميتية رهيبة قد يغبطون الذين يوزعون عواطفهم في اللألاء السطحي لأنهم لا يقاسون ضغط العواطف التي لم تتفجر، ولكنهم يغبطون الآخرين على راحتهم دون أن يتمنوها لنفوسهم، ويفضلون وحدتهم ويفضلون السكوت ويفضلون تضليل قلوبهم عن ودائعها، والتلهي بما لا علاقة له بالعاطفة. يفضلون أي غربة وأي شقاء – وهل من شقاء وغربة في غير وحدة القلب؟ – على الاكتفاء بالقطرات الشحيحة.

ما معنى هذا الذي أكتبه؟ إني لا أعرف ماذا أعني به. ولكني أعرف أنك محبوبي وأني أخاف الحب. إني انتظر من الحب

كثيرا فأخاف أن لا يأتيني بكل ما أنتظر. أقول هذا مع علمي بأن القليل من الحب كثير. الجفاف والقحط واللاشئ بالحب خير من النزر اليسير. كيف أجسر على الإفضاء إليك بهذا.

وكيف أفرط فيه؟ لا أدري. الحمد لله أنني أكتبه على الورق ولا أتلفظ به، لأنك لو كنت الآن حاضرا بالجسد لهربت خجلا بعد هذا الكلام ولأختفيت زمنا طويلا. فما ادعك تراني إلا بعد أن تنسى.

.... حتى الكتابة الوم نفسي عليها أحيانا، لأني بها حرة كل هذه الحرية.. أتذكر قول القدماء من الشرقيين: إنه خير للبنت أن لا تقرا ولا تكتب؟ إن القديس توما يظهر هنا. وليس ما أبدي هنا أثر الوراثة فحسب، بل هو شئ أبعد من الوراثة. ما هو؟ قل لي أنت ما هو هذا. وقل لي ما إذا كنت على ضلال أو هدى فإني أثق بك وأصدق بالبداهة كل ما تقول. وسواء أكنت مخطئة أو غير مخطئة فإن قلبي يسير إليك، وخير ما يفعل هو أن يظل حائما حواليك يحرسك ويحنو عليك.

... غابت الشمس وراء الأفق ومن خلال السحب العجيبة الأشكال والألوان، حصحصت نجمة لامعة واحدة، هي الزهرة آلهة الحب. أترى يسكنها كارضنا بشر يحبون ويتشوقون؟ ربما وجد فيها من هي مثلي، لها واحد جبران، حلو بعيد هو القريب القريب، تكتب إليه الآن والشفق يملأ الفضاء وتعلم أن الظلام يخلف الشفق وأن النور يتبع الظلام، وأن الليل سيخلف النهار، والنهار سيتبع الليل مرات كثيرة قبل أن ترى الذي تحبه فتتسرب إليها كل وحشة الشفق وكل وحشة الليل فتلقي بالقلم جانبا لتحتمي من الوحشة في اسم واحد: جبران.

ماري زياده

إلى جبران

في ٩ كانون الثاني سنة ٩٢٥

... لقد قصصت شعري. وعندما ترى من صديقاتك بعد اليوم يا جبران من هن في هذا الزي يمكنك أن تذكرني وتقول لهن في سرك انك تعرف من تشبههن. كنت إلى شهور راغبة في التخلص من هذه الذوائب التي يقولون أن لطولها يدا في قصر عقل المرأة، وهو محض افتراء طبعا. ولكن عندما رأيت شعري بحلكته وتموجه الجميل وعقاربه الجريئة مطروحا أمامي تداعبه يد المزين شعرت باسف على هذه الخسارة، غير أن المزين طيب خاطري بعبارات تكسرت فيها الكلمات الألمانية والإيطالية، وهو روماني على ما يقول فهل كان في وسعي أن أضحك؟ فمضى يصف لي جمال الشعر القصير ومنافعه ومميزاته لاسيما وأنه، على ما زعم المزين الصالح، يليق لي كثيرا... وسألته إلى كم امرأة يقول كل هذه الكلمات فأجاب: "إني فيلسوفة".

أرأيت هذه الفيلسوفة التي تسعى إلى قص شعرها ثم تحزن عليه ثم تضحك لأن المزين يعزيها عن فقده بكلمات مسرحية. وأين تلك الفلسفة والفتاة المذكورة تحدث بهذا الحديث عن شعر قاتم هو شعر.

مراجع

كتب:

باحثة البادية	لمي زياده
مي وجبران	لجميل جبر
امين الريحاني، الرجل الأديب	لجميل جبر

مجلات:

الهلال

المقتطف

المحروسة

الفهرس